مظلومة

بقلم غائب طعمة فرمان

وجاء المساء ، ومعه نداءات المتسولين « الله كريم . اللي يطي يكسب اجر عند الله » ، وصياح النسوة من الابواب على اطفالهن : « صبيح ، مكسور الركبه ، صار وكت العشا » وهتافات الباعة المتجولين منادين على الشلغم المسلوق والفجل ، والطرشي الحامض ، ومواء القطط وتهاوشها ، وهي تنتقل من بيت الى بيت ، ومن قمامة الى أخرى ، واجراس دراجات تدق في الظلمة تحسبا لكل طارىء ، ورشقات سطول الماء القذر ، ولعنة مجهولة بطلقها رجل وقعت قدمه خطأ في بركة ماء آسن ، وسعال عجوز يتبعها بـ « يا ربي ، سترك ورضاك » .

وكانت مظلومة خلف الباب تنصت ، ورغبة مجنونة تحرق دمها تدعوها الى ان تخرج من الباب ، وتراقب كل ذلك ، وتبتسم ، وتتبادل كلمة مع هذه ، واخرى مع تلك ، وتشترك بهذا الوداع الحار لنهار لاغب كانت تسمع اصواته ، وتتشمم روائحه من خلال باب موصد على عالم حرم عليها منذ زمان . انها خلف الباب تكتفي بالانتظار ، وترقب تلاشي هذه الاصوات والنداءات واللعنات ودمدمات الاقدام على الارض. وكانت مظلومة قد جازت المجاز بقدمين لينتين تتلمسان الارض تلمسا . مرت بالتنور المهدم ، والليل متكور فيه ، وبالمرحاض يصرصر فيه صرصار وبالصفائح المتروكة التي كانت تخشى دائما ان ترتطم بها فتحدث صوتا.

تلمست الحائط بيدها حتى وقعت كفها على انبوب الماء البارد يتسلق العتبة ، ويخرج من ثقب الباب ، ويغيب هناك في العالم المتسرب اليها من خلال الشقوق . وقفت خلف الباب منتظرة انتظام انفاسها ، زافرة زفرات قصيرة . ثم فرشت كلتا كفيها على ظهر الباب تتلمس خشبه المتفدد حتى عثرت كفاها على المزلاج في الظلمة . طوقتاه من يمين وشمال .

ومرفقيها ، ولكن اطمئنانا كان ينبعث رقيقا من اعماق نفسها . المزلاج الان بين يديها مستكين صامت لا يحمل لها اي ضرر . وكان اكثر ما تخشاه ان يرتفع صوته في هذا المساء المتوتر ، ويكشف وجودها وراء الباب . كانت تمرر اصابعها النحيلة على حديده الذي تندى الان من حرارة كفيها ، وكأنها تداعبه منتشية من امتثاله لها ، وعطفه عليها . الان تحس به طوع بنانها ، وهي تنتظر اللحظة المناسبة لتسحبه . كانت احتوتاه بحنو كطائر تخاف ان يصدر صيحة ذعر واحتجاج . سرت برودته الحديدية بباطن كفيها ، واحست بها تتسلق الى رسغيها الاصوات تخفت وتتلاشى . وكان لمظلومة سمع مرهف تعودت ان تطوف به خارج اسوار سجنها فتسمع اصوات الزقاق خلف الباب المغلق بالمزلاج ومواء القطط وعراكها ، والسعال والدعوات واللعنات ، ونداءات الباعة في ازقة مجاورة ، واغنية فالتة من راديو في بيت سعيد ، او مقهى بعيد وفي الليل تسمع شخير ابيها في حجرته ، وبأبأته في نومه ... ثم جاءت اللحظه المناسبة ... سمعت مظلومة بربرة محرك سيارة في شارع مجاور ، ودن في الصمت الهابط صوت منبهها . اسرعت مظلومة وسحبت مقبض المزلاج . وسمعت الصهيل الحديدي قرب اذنيها مندمجا مع تبويق السيارة . تسمرت مظلومة لحظة في مكانها يدندن في طبلة اذنها خليط الصوتين ، ثم يهمد . التقطت انفاسها . وقامت بالخطوة التالية . جذبت الباب قليلا نحوها . وتسرب هواء الزقاق عبر الشق الضيق لاذع البرودة، احست به مثل منشار دقيق يحز قدميها الحافيتين ويتوغل داخل البيت . سكنت لحظات لتمد رأسها بعدها الى الخارج . رجفة سريعة سرت في كيانها ، وكأن لفحة البرد تلك انقلبت الى همسة آدمية فاجأتها . كان رأسها الملفوف بالعباءة يلوح مثل قطة سوداء تسلقت الباب عبر مربعاته الخالية الى النصف . مدت بصرها الى اليسار . لمحت شعلة الضوء الشعثاء بعيدا فوق دكان العطار المفتوح . ثم تبينت بقع الماء الراكد سوداء مثل قطع صفيح صدئة ملقاة طولا وعرضا . وفجأة اضيئت شناشيل على بعد عشرة امتار الى يسارها . ردت مظلومة رأسها الى الخلف ، كأن ضوءا سلط على عينيها . ثم عادت فمدته . رأت شبح امرأة ينزل الستائر على الشبابيك ، ولم يبق الا شباك واحد ظل مثل عين شزراء تراقبها . اشاحت وجهها عنها الى امتداد الزقاق الى يمينها ، حيث يقع الحمام ومقهى ابيها يلقي مربع ضوء باهت في طرفه القصي . سرى عنها خلو الزقاق من المارة والاطفال المتسكعين. لا بد ان النسوة الان قد هيأت الطعام للعائلة التي اجتمع شملها حول صينية ، والمنقلة يفرقع خشبها في الحوش . اما هي فتخلف وراء ظهرها بيتا خاليا باردا مظلما . وتنتظر . كان الانتظار بارقة الامل الوحيدة في حياتها ، الفرصة الفريدة . اما اقواله وآماله فكانت تضحك لها وتتسلى بها . كانت تعرف اباها جيدا ، قسوته . مناكفته . حرصه على الا يريها لاحد . والويل لها اذا عرف بلقاءاتهما المختلسة هذه . فكيف اذا اقدم صباح على ما ينوي الاقدام عليه ؟ سيأمر ابوها ياسرا بان يقذفه من المقهى . كانت هذه الفكرة تعذبها ، وتؤرقها في الليل ، وتجعلها تحلم باحلام مزعجة اذا غفت . امس حلمت بانها نائمة على سرير يشبه تختا من تخوت مقهى ابيها ، تطوف حوله عقارب كبيرة كالطيور السوداء ، او الضفادع ، تتعارك حولها وتتلاطم وتنط ، وحين نهضت

من سريرها لتهرب وجدت باب حجرتها مغلقا . ماذا يعني هذا ؟ كانت تريد أن تسأله اذا جاء هذا المساء على موعده . ربما لذلك علاقة بأبيها ، وبالنية التي ينويها صباح . وكانت تخاف عليه أن يطرد ، وتحرم هي من هذه اللقاءات القصيرة التي تذكرها بطفولتها المبتورة . ودت من كل كيانها ان تراه . لم يخلف له موعدا قط ، منذ أن كان ذلك اللقـــاء السابح ، تقف عند الباب فتجد الظلمة تنسق عنه ، وتسمع صوته الهامس الواثق على مقربة منها .

اطلت برأسها اكثر . هبت على وجهها نسمة باردة ، ولكنها منعشة سرت في صدرها العاري ، وتعلعلت بين نهديها ... و ... لمحت فجأة ... شبحا يسير لصق الحائط قادما من الاتجاه الذي يقع فيه مقهى ابيها . رجفة برد ورهبة . أهذا هو ؟ جاء أخيرا ولم يخلف ميعاده ؟ القت نظرات متقطعة متوجسة في ذلك الاتجاه . كان الشبح يسير سيره المتئد . في مشيته ريبة ، وفي التصاقه بالحائط تقصص مخيف . لاجسارة ، ولا .... وسحبت مظلومة رأسها من شق الباب ، وردت الباب بحذر . شعرت بأنها على خطأ . لم تكن هي مشيته العنود الواثقة ... ثم ... خيل اليها ان القادم اطول قامه منه . ودت لو تسحب المزلاج . ولكنه سيصهل ، وينكشف امرها . ابوها منعها من دهنه ليكون حارسا عليها مثل جرس معلق في رقبه قطة يريد لها أن تلزم بيتها . هي الان تتلمس معدته ثانية . الصقت جسمها في الباب . الخطـوات المتلصصة تقترب . جمدت مظلومة خلف الباب ، مطبقة اسنانها على شفتها السفلى ، شاعرة بالحرج والندم ورغبة عارمة في الهرب ، لا ، ليس هو ! دمدمة مغيظة على الارض . شحطة ظلت تتضخم في اذنيها ، ملحة ، متطفلة ، عنود . عضت مظلومة شفتها السفلى بقوة تحاول ان تكتم الرجفة الباردة التي أخذت تهز جسدها . انفرزت اسنانها فـــي اللحم والمتها . الشحطة على مقربة دانية منها . ثم توقف الصوت هناك خلف الباب تماما . قلبها يركض هاربا من صدرها ، انفجر مع طرقـة على الباب . ودت لو تهرب ، ولكن القادم سيسمع وقع اقدامها من وراء الباب . طرقة اخرى ، ثالثة . اعنف وألح . سيسمع الزقاق كله هذه الطرقات . سيفتضح امرها . وسيقفل ابوها عليها باب حجرتها عندما يخرج ، كما فعل مرات . طرقة وراء طرقة ، وحمحمة خلف الباب. وكان عليها ان ترد على الطارق . راوحت بقدميها . خشخشت . ثم قالت بصوت جاف راعش :

ـ منـو ؟

ـ مظلومة ؟

لعقت مظلومة شفتيها :

ـ عيني ، منو انت ؟

وعضت على شفتها .

ـ ياسر . ما عرفت صوتي ؟

هل تحقق ما كانت تخشاه ، فجاء ياسر يخبرها بما حدث لصباح ؟ كان ياسر يعمل في مقهى ابيها .

ـ ها ، عيني ، ياسر ؟

كان صوتها مخضلا بعبرة توشك ان تنفجر .

ـ انت وحدك ؟

ـ ومن عندي بالبيت ؟

ـ ما رجع عمي

ـ طلع من الصبح .... هو مو بالكهوه ؟

ـ ما شفناه اليوم .

الحمد لله . ماكو شي . وانتظرت مظلومة ان تنتهي الى هذا الحد. فقد جاء ياسر ليسأل عن ابيها . الا انه وقف صامتا خلف الباب .

ـ ما صار احسن اليوم ؟

ـ مثل كل يوم .

صمت فارغ متوان .

ـ مسكين ابوك . متعذب بمرضه هذا .

ـ اي ، والله مسكين .

صمت آخر ممطوط .

ـ وأنت تتعذبين وياه .

ـ هذا نصيبه ونصيبي .

ـ انضوا مشعول بالبيت ؟

ـ ابويه ما يقبل .

ـ وتعيشين بالظلمة ؟ الله يقبل ؟

ـ تعلمت .

ـ اشعليه . راح اجيب لك نفط .

(الاجل هذا جاء ؟)

ـ لا ، عيني ، ما اريد .

سكت . جثم صمته على صدرها كالطابوقة .

ـ اخـذي .

ـ شنو ، عيني ؟

ـ هذي زلابياء ، اخذي .

ـ لا ، عيني ، ما اريد .

ـ اخذي . يعني اذا كان عمي ما يدير بال ، يعني آني هم ؟

ـ لا ، عيني ، ما أريد .

ـ اخذي ، اخذي !

توهمت انه سيظل يردد ذلك بلا نهاية اذا لم تمد يدها ، وتتناول الزلابياء . خشخش الورق حين ارتطم باصابعها . شكرته .

رد :

ـ انت دائما على بالي .

احست ببرودة الارض تتسلق كعبيها ، وتسري في كاحليها . كانت حافية القدمين . ودت لو تقول له ذلك لينصرف . الا ان الخجل عقد لسانها . كانت تحس بوجود ياسر خلف الباب ، وكأنه يطوقها بذراعيها، ويكم انفاسها . قالت متوجسة :

ـ عيني ، ياسر : يمكن ابويه راح يجي ويشوفك . وانت تعرف .

ـ انت محتاجه الى شي ؟

ـ لا ، عيني ، لا .

ـ اذا احتجت الى شي ، كولي لي .

ـ لا ، عيني ، لا .

ـ لا تخجلي .

ـ لا ، عيني ، لا .

ـ انت عزيزة عليّ .

ـ لا ، عيني ، لا .

ـ وانت شابة وتحتاجين الى كل شي .

ـ لا ، عيني ، لا .

كانت تكرر الجملة بآلية وعجلة وغيظ تتحمله على الانصراف . ولما نطق بـ .. بعد سلامة .. كان ردها كالزفرة ، كالتعويذة من الشيطان واصطبرت بضع ثوان لتغلق بالمزلاج حانقة . ولاول مرة استعذبـــت زعيقه الخارج . كانت تنتظر رجلا فجاء رجل آخر . في الحجرة لـــم تجد رغبة في فك الزلابياء . القتها فوق الدولاب عيوفا ، قائلة لنفسها: مثل ابليس ! لو يسمع ابويه راح يحبسني بالحجرة ويأخذ المفتاح بجيبه ويصدق الحلم . وتلفتت الى الحيطان ، مثلما كانت تفعل وهـــي حبيسة الحجرة ، ايام غضب ابيها عليها . ضاقت انفاسها ، وكأنها قد

حبست فعلا . رفعت فتيلة الفانوس في ضيق ، توهج كاشفا عن ظلال الاشياء في الحجرة . سرير خشبي ، ودولاب صحون ، وصندوق ولبة نفطية ، وجاون ورثته من امها لدك « الكبه » . وهو الان مهجور في ركن . لان الكبة لم تعد تدك في البيت منذ وفاة امها . نادرا ما يفوح البيت بزكي الطعام . لان اباها غالبا ما ياكل خارج البيت . وهي تكتفي ببسيط الطعام . تاكل وحدها قرب اللمبة التي تطبخ عليها وحيدة منبوذة ، في بيت فارغ ، آه ، ما اثقل العيش وحدك ! ومسهمت مظلومة . لا بد ان الناس فرغوا من عشائهم الان ، وهم يتحلقون حول المناقل . اين صباح الان ؟ ربما في ركن مظلم تحين خلو المكانليدنو منها . او لعله رأى ياسرا عند الباب فنكص . سيزعل وسيختفي ضوء حياتها . ولا تعود تراه سنين عديدة اخرى . واحست بوجهها يلتهب . ارادت ان تفعل شيئا ، ان تقول كلاما رقيقا فيه اعتذار ومحبة ونخوة . ولكن لمن تقول ؟ للحيطان الصامتة المخططة بالظلال ؟ للابالسة في البيت الصامت ؟ للصراصير ، لحظها العاثر ؟ تركت الحجرة ، وخرجت الى المجاز ثانية ، وفتحت المزلاج بتحد واستشهاد . ولم ترتجف لصهيله . كان ضوء الشناشيل قد اطفىء . وبدا الزقاق كله غارقا في ظلام دامس ولكنها لم تشعر برهبة . ارسلت بصرها الى هالة الضوء فوق دكان عطار المحلة ، ولم تلمح احدا في هالة الضوء . العطار اغلق دكانه، وترك المنصة الخشبية قائمة تلقي ظلها الطويل على الارض . وتذكرت مظلومة يوم كانت امها ترسلها لشراء سكر او شاي او دهن من العطار . كانت تلك المنصة تضايقها ، لانها اطول من قامتها بكثير . كانت ترفع ذراعيها لتمسك بها ، وتشرئب لترى الصفائح المصفوفة امام العطار ، اما الان فلا تدري اين تصل الدكة من جسمها ، وقد كبرت سنين . لم تعد تخرج الى الدكان منذ وفاة امها قبل ثمانية اعوام ، وطرد ابيها لخالتها بعد ان عاشت معها في البيت اقل من سنة . ذلك جزء من حياتها يبدد كالحلم . وهي لا تستطيع حتى ان تقصه لاحد ، لان اباها كان يشتمون امها ، وبجعلها السبب في مرضه، ولا يذكرها الا باقبح النعوت . وانتقاما منها حبسها في البيت ، وحرم عليها مغادرته وكلف زنوبة « المخبلة » لتشتري لها ما تحتاجه . وزنوبه ومزاجها . قد تتسامح معها ، وتتركها تخرج الى الزقاق . عيني ما شافت ، واذني ما سمعت . وقد يشتد عليها خبالها وحذرها فتقول : « لا عيني ، تريدين ابوك يضربني ، ويطلعني من الحجرة اللي ساكنة بيها ؟ لا ، عيني ، ما اتحمل خطيئتك . وكان الخروج الى الشارع ، وشم الهواء النقي خطيئة . تحسرت مظلومة على تلك الايام التي كانت تركض فيها طليقة في الزقاق ، وتتردد على الملا « تلفخ » لتختم القرآن . وكانت تجد صباحا خارجا من ملا « داوي » فيقول لها مناكفا : « بعدك ب « الحمد » و « قل هو »؟ وكانت تجد الشجاعة لان تمد يدها ، وتضربه عى كتفه ، او تحاول ان تجر شعره الاجعد الناتىء ، ولكنه يتخلص في اللحظة المناسبة . اوه، يا ربي ، اين هو الان ؟ مدت بصرها الى الجانب الاخر من الزقاق . كان يبدو مثل بئر عميقة . وفي قعر البئر يلتمع كالماء ضوء الحمام ومقهى ابيها . وفي المقهى ياسر ... او ربما صباح ؟

البارحة في مثل هذا الوقت كان يحدثها . ابوك غاضب دائما متعكر المزاج . اخاف ان اقرب منه . انتظر وانتظر . وهو لا يمل من الكلام والشكوى واللعنات . فتضحك هي من رغبته غير المعقولة .. ان يخطبها من ابيها . وابويه راح يقبل ؟ ولكن صباح يتحمس . وتجد هي لذة في حماسه ، وحين يقول : عندي شهادة ، ومن يلقى مثلي؟ يمكن المرحومة امك تفرح وهي بقبرها . كم مرة شافتنا نلعب سوية ! وينقلها الى طفولتها . ليكن له خياله . ولتكن هذه اللقاءات المختلسة . ولكنها احيانا تصدق مثله ، وتصور ان اباه سيلين . انها تستهين بالوحدة والظلمة والتقتير ولعنات الاب ، وشتائمه الدائمة ، وبرد البيت ، وكل شيء. وتستجيب لشيء غامض في اغوار نفسها ، شيء عذب وهش ، ولكنه يدندن في الحنايا ، ويلهب الجسم حرارة احيانا ، ويحلو في المذاق ... كتلك الشلفمة المشوية التي قدمها لها ذات مرة ، فاعادت وصل ما انقطع . وكانت زنوبة قد سمحت لها ان تشتم الهواء عند عتبة الدار فتجاوزتها قليلا الى منتصف الزقاق . وهناك رآها . « مظلومة ، بالعجل تنسين ؟ انا صباح ، ما عرفتني ؟ » وكان صباح قد كبر خلال سنوات حبسها ، وطر له شارب اسود ، واستكان شعره ، وسبط . نظرت اليه مبتسمة خجولا ، وفرحة في الوقت ذاته ، فهو ايضا يعود الى طفولتها تلك ، ايام حياة امها ، الملا تلفخ ، وقل هو الله احد ، ودكة العطار ، واشياء جميلة تنحسر عليها . تمتمت مظلومة بشيء له، واحست وكانها عثرت على شيء ضائع ، واحدة من تلك الكرات الزجاجية الملونة التي كانت تزاحم الاولاد في اقتنائها ، ايام كانت طفلة مدللة من امها ، مد لها صباح شلفمة مشوية ، قبلتها بسرعة ، وركضت الى باب دارها يلاحقها صوت زنوبة المخبلة التي كانت فيما بعد رسولا بينه وبينها :

موسكو

غائب طعمه فرمان

ـ بس آني ، ماكو احد .... يعطيني شلغم ! (*)

صدر حديثا

قراءة ثامنة

للشاعر

حميد سعيد

منشورات دار الآداب

الثمن ليرتان لبنانيتان